# الأثر الصّوفي

# في كتابات المؤرّخ أحمد بابا التنبكتي

الأستاذ الدكتور عبد الواحد عبد السلام شعيب

مركز جهاد الليبيين–ليبيا

أدّت شهرة العديد من الأعلام ورجال الفكر، إلى شهرة مدهم وبلدانهم أيضًا عن طريق النّسبة إليها. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: شيخ القرّاء أبي عمرو الدّاني، نسبة على مدينة دانية في الأندلس، وابن حزم وابن حيّان القرطبيين، والخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد، والقاضي عياض السّبتي، وابن عبد الملك المراكشي، والمقّري التلمساني، ثم عالم التكرور احمد بابا التنبكتي، الذي اسهم في شهرة مدينته تنبكتو، وبلده إفريقيا على حدّ سواء في الميدان العلمي والفكر.

ولد التنبكتي في هذه الحاضرة الإفريقيّة واسمه بالكامل: أبو العباس أحمد بابا بن احمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت الصّنهاجي الماسني السُّوداني التكروري التنبكتي[1]. وهو من بيت علم وصلاح حيث توارث آباؤه وأجداده العلم عن كابر نحواً من مائتي عام[2]. ولذلك أُثر عنه قوله: "أنا أقل عشرتي كتبًا، نهبت لي ست عشرة مائة مجلّدة"[3].

---

1- ينظر في ترجمته: أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، 2/281-285. أحمد المقري التلمساني: روضة الآس، 303-313. العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حلّ مرّاكش وأغمات من الأعلام، 2/302-307. المحبّي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر 1/170. السّلاوي النّاصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى 5/129-131. محمد بن مخلوف: شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكية ص 298.

2- ينظر الناصري السّلاوي: الاستقصا 5/129.

3- ابن مخلوف: شجرة النور الزكيّة ص 299.

لذا فقد ساعدت هذه البيئة الثقافيّة التنبكتي، أن ينشأ على حبّ العلم والتهّمم به منذ نعومة أظفاره، عن طريق التتلمذ والأخذ على جلّة من أساتذة وشيوخ بلده كان أوّلهم والده احمد بن أحمد ابن عمر بن أقيت.

أولاً: أثر بيئته العلميّة الأولى في تشربّه للفكر الصُّوفي[1]: شجع هذا الوسط العلمي الحافل الذي نشا فيه أحمد بابا التنبكتي إلى أن ينهل ويأخذ بنصيب وافر من عدّة علوم، فبدأ بحفظ الأمّهات، ثم قرأ النحو على عمّه الشيخ أبو بكر بن أحمد بن أقيت الذي يقول عنه: "وهو أوّل من قرأت عليه علم النحّو، فنلت بركته ففتح لي في مدّة قريبة بلا عناء[2]".

ثم درس التفسير والحديث والفقه والأصول والعربية والبيان والتصوّف وغيرها على شيخه العلاّمة محمد بغيُعُ الذي جاء في ترجمته: "وبالجملة فهو شيخها وأستاذي، ما نفعني أحد كنفعه وبكتبه رحمه الله تعالى، وجازاه بالجنة، وأجازني بخطّه جميع ما يجوز له عنه"[3].

كما قرأ على والده الحديث سماعًا والمنطق[4]. وكان التنبكتي في الوقت نفسه من أمهر الطلبة وأنجبهم.

---

1- يقول ابن خلدون في التصوّف: "هذا العلم من العلوم الشرعيّة الحادثة في الملّة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحقّ والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزُّهد فيما يُقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عامًا في الصحابة والسّلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختصّ المقبلون على العبادة باسم الصُوفية والمتصوّفة". عبد الرحمن بن خلدون: المقدمّة، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط1، 1993، ص 381.

2-أحمد بابا: كفاية المحتاج 181/1 رقم 137.

3- أحمد بابا: كفاية المحتاج 240/2 رقم 646.

4- العباس بن إبراهيم: الإعلام 303/3.

وهكذا فإن المدرسة الأولى التي تعلّم فيها صاحبنا، كان شيوخها من أعلام الفكر الصُوفي فشيخه محمد بغُيُغُ قام بتدريسه هذا العلم إلى جانب بعض العلوم الأخرى. أما شيخه الثاني الذي درس عليه النحّو فهو وإن لم يخبرنا بأخذ التصوّف عنه، غلاّ أنه صرَّح بأن له مؤلّفات في هذا الفنّ نالت إعجابه وذلك في قوله: "ما رأيت قطّ مثله، ولا من يقرب منه في حاله، وله تواليف لطاف في التصوّف وغيره"[1]. لذلك فإنّ هذه الشهادة يمكن أن نستنتج منها ما يلي:

1- أن عمّه أبو بكر بن أقيت هذا، كان له دراية كبيرة بعلم التصوّف، إذ إن هذه التآليف الحسان خير دليل على ذلك.

2-تشير إلى أن أحمد بابا نفسه قد اطلّع وقرأ بإمعان مؤلّفات شيخه في التصوّف، وإلاّ لما استطاع أن يصدر حكمه بمدى قيمتها العلمية من عدمها.

3- أن حكم التنبكتي على مؤلّفات أستاذه بأنها "تواليف لطاف"، تؤكّد بدورها، قوة تأثّره بمنحى شيخه واتجاهه الصُّوفي.

أما بالنسبة لوالده الذي درس عليه علم الحديث والمنطق كما أسلفنا، كان له دوور هو الآخر في تكوين الحّس الصّوفي لديه، وذلك عن طريق ما يورده له من أخبار المتصوّفة وكراماتهم. ففي الترجمة لجدّه لوالده أحمد بن عمر أقيت يقول أحمد بابا: "كان رحمه الله، خيّرًا فاضلاً، صالحًا، متورّعًا، محافظًا على السنّة، والمروءة والصّيانة والتحرّي، محبًّا في النبيّ صلى الله عليه وسلّمَ وصحبه، ملازمًا لقراءة قصائد مدحه مشبعًا بذلك، ولقراءة الشفا لعياض على الدوام... ومن كراماته كما اشتهر عند الناس، انه لما زار القبر الشريف طاب الدخول في داخله، فمنعه القيّمون منه، فجلس على الباب يمدحه -صلى الله عليه وسلّم- فانفتح الباب وحده بلا تسبّب من أحد، فتبادر الحاضرون بتقبيل يده. هكذا سمعت الحكاية

1- أحمد بابا: كفاية المحتاج 181/1 رقم 137.

من والدي وغيره، وهي مشهورة عند الناس، وحدّثني والدي –رحمه الله- أنه سأله عنها فسكت ولم يجبه"[1].

بيد أن تأثّر أحمد بابا التنبكتي بشيوخه الأوائل هؤلاء وتشربه للفكر الصُّوفي عن طريق التتلمذ عليهم لم يقف عند هذا الحدّ وحسب بل انعكس بعد ذلك بشكل واضح على كتاباته وبخاصّة في التأريخ والترجمة لأمثال هؤلاء الأعلام، سواء في استعماله لعبارات ومصطلحات المتصوّفة[2] في التعريف بهم، أم في سوق كراماتهم وبركاتهم.

إذن أفاد التنبكتي من بيئته الثقافية الإفريقيّة في تكوينه العلمي الرَّصين الذي أهّله للمشاركة بالتدريس والإفتاء والتأليف. ولهذا وصفه صديقه وعصريّه الأديب والمؤرخ محمد بن يعقوب المراكشي قائلاً: "كان أخونا أحمد بابا من أهل العلم والفهم والإدراك التام الحسن، حسن التصنيف، كامل الحظ من العلوم فقهًا وحديثًا وعربية واصلين، وتاريخًا، مليح الاهتداء لمقاصد الناس، مثابرًا على التقييد والمطالعة، مطبوعًا على التأليف، ألّف تآليف مفيدة جامعة فيها أبحاث عقليّات ونقليّات، وهي كثيرة"[3].

وقد أنافت هذه المؤلفات عن الأربعين مؤلّفًا في علوم الفقه والنوازل والحديث والنحو والتصوّف والتراجم والطبقات. إلا أن هذه المكانة العلمية السامقة التي حازها التنبكتي في مدينته ومصره، ما لبث أن كدَّر صفوها غزو جيش المنصور الذهبي سلطان المغرب للبلاد حيث قام قائده محمد زرقون بأسر الشيخ وأسرته آل أقيت وتغريبهم في القيود إلى مراكش سنة (1002هـ)، ثم زجّ بهم في السّجن هناك حتى سنة (1004هـ)[4].

---

1- أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص 137 و138 رقم 135.

2- ولذلك يقول في وصف شيخه محمد بغُيُغ: "شيخنا وبركتنا الفقيه العالم المتفنّن الصالح، العابد الناسك". أحمد بابا: كفاية المحتاج 237/2 رقم 646.

3- العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام 304/2.

4- العباس بن إبراهيم: المصدر نفسه والصفحة.

وعلى الرغم من تلك المحنة العظيمة التي تعرضّ لها التنبكتي، لكن ذلك لم يثنه عن استئناف ومواصلة نشاطه العلمي في البيئة المغربية الجديدة التي حلّ بها وهو في الأربعين من عمره، فتصدَّر للإقراء والتدريس والفتيا والتأليف، حتى عاد إلى وطنه تنبكتو سنة 1016هـ، التي عاش فيها حتى انتقل على رحمته الله تعالى سنة 1036هـ[1]/1627م.

ثانياً: تألّفه في فنذ الطّبقات والتراجم الإخباريّة: يعدّ أحمد بابا التنبكتي أحد العلماء الموسوعيين الذين نبغوا في غير ما فنّ من أفانين العلم وضروب المعرفة، فقد كان فقيهًا، ومحدّثًا، ولغويًا، وأديبًا، وكاتباً، ومؤرّخًا، فضلاً عن دُربته الفائقة في ميدان التأليف والتصنيف العلمي، الذي جُبل عليه، فجاءت مؤلّفاته متعدّدة المجالات والمضامين.

لكن بالرغم من ذلك فإن أشهر آثاره وكتاباته العلمية كانت في الميدان التاريخي، وفي فنّ الطبقات والتراجم على وجه الخصوص، وتتمثل في كتابيه القيّمين (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) ومختصره أو ذللـه (كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج)، في طبقات أعلام المالكيّة.

وبهذا يكون أحمد بابا هو رابع أربعة من المؤرّخين الذين تصدَّوا للترجمة والتأريخ لأعلام المذهب المالكي إذ كان أوّلهم والرّائد في هذا المجال العالم الفذّ حافظ المغرب الشهير القاضي عياض السَّبتي[2] (ت 544هـ) في موسوعته التاريخية الضّخمة (ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك).

---

1- المصدر نفسه ص 306.

2- ينظر في ترجمته: عبد الواحد عبد السّلام شعيب: القاضي عياض مؤرّخًا، منشورات الجمعيّة المغربيّة للدراسات الأندلسيّة، مطابع الشيوخ، تطوان- المغرب، ط1، 2000، ص 19 هامش رقم (1).

ونظرًا لكون القاضي عياض أحد المؤرّخين الكبار[1] الذين عرفهم الغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، لذا فقد كان أثر مؤلّفه (ترتيب المدارك) عميقًا في من جاء بعده من العلماء والمؤلّفين فاتخذوه مثالاً للاحتذاء به والسير على هديه ومنواله[2].

ولهذا يقول السخاوي: "وقد عوَّل على المدارك كل من بعده"[3].

بيد أن أول من اقتفى أثر القاضي عياض في التأليف في طبقات علماء المالكية عالم المدينة المنوّرة برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون[4] المتوفى سنة (799هـ)، الذي ذيَّل كتاب (المدارك)[5] بمؤلّفه (الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب).

وقام بعد ذلك اثنان من العلماء بتذييل (ديباج) ابن فرحون المذكور أيضًا وهما: القاضي بدر الدين القرافي[6] المصري (ت 1009هــ) بكتابه (توشيح الديباج وحلية الابتهاج)، ثم

---

1- من مؤلّفاته في التاريخ أيضًا: المعجم في شيوخ ابن سكَّرة، والغُنية في ترجمة شيوخه، والفنون الستة في أخبار سبتة، وتاريخ المرابطين وغيرها. ينظر عبد الواحد عبد السّلام شعيب: المرجع نفسه ص 22-26.

2-توجد إلى جانب الكتب التي ذيّل بها أصحابه كتاب (المدارك) للقاضي عياض بعض المختصرات له أيضًا مثل: مختصر أبي عبد الله بن حمّاد السَّبتي، ومختصر أبي عبد الله محمد بن رشيق الأندلسي، ومختصر ابن علوان. ينظر محمد المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب 48/1. أحمد بابا: نيل الابتهاج ص28.

3- شمس الدين السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ التاريخ، ص 195.

4- "ولد ابن فرحون بالمدينة المنوّرة ونشأ بها... وتفقه وبرع وصنَّف وجمع، وولي قضاء المدينة، وألف كتابًا نفيسًا في الأحكام، وآخر في طبقات المالكية، ومات في عشر الأضحى من ذي الحجّة سنة 799هـ عن نحو من السبعين". ابن حجر العسقلاني: الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة 49/1 رقم 124.

5- لذلك وصف الأستاذ محمد الأحمدي أبو النور كتاب (المدارك) هذا قائلا: "هو واسطة العقد، ودرة التاج، في التراجم التي سبقته، والتي لحقت به على السواء، وقد برزت فيه شخصية القاضي عياض مؤلفًا ومؤرّخا وناقدًا نزيهًا في النقد". محمد الأحمدي أبو النور: مقدمّة الديباج.

6- ينظر أحمد بابا: نيل الابتهاج ص 603 رقم 737.

عصريُّه العلاّمة أحمد بابا التنبكتي (ت 1036هـ) بمؤلّفه الحافل (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) ومختصرة (كفاي المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج). ولذلك يعدّ هذا العالم التكروري من أكثر العلماء والمؤلّفين تأثراً بالقاضي عياض، وتأسّياً بمنهجه وطريقته، لأنه يقول فيه: "وكان ممن سعى في ذلك من أهل مذهبنا المالكيّة سعيًا حثيثًا، وجمع فيه ما تفرّق عند غيره قديمًا وحديثًا، الإمام الكامل الجليل الفاضل، أبو الفضل عياض، ملأ الله تعالى ثراه من رحماه أزاهير رياض"[1].

ثم توالت سلسلة التذييلات على هذه الكتب، حيث ألّف محمد بن محمد بن سمّاه (إيضاح السبيل لمن بالديباج والتكميل)[2]. وذيّل القادري المتوفى سنة (1187هـ) كتاب (الكفاية) بكتاب أطلق عليه (الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج)[3].

كما قام مؤرّخ من ليبيا هو محمد البشير ظافر المدني (ت 1909م) بتأليف ذيل ثان على كتاب (النيل) للتنبكتي تحت اسم (اليواقيت الثّمينة في أعيان مذهب عالم المدينة)[4].

وأخيرًا جاء من بعده محمد بن مخلوف التوني فصنّف كتابه (شجرة النّور الزكيّة في طبقات المالكية)، والذي يعدّ أيضًا ذيلاً على (نيل الابتهاج) هو الآخر.

وهكذا فلما كان القاضي عياض هو صاحب قصب السَّبق في التأريخ والترجمة لأعلام المالكية -كما أسلفنا- فإن من جاء بعده للتأليف في هذا الفنّ حرصوا على الاقتداء به وتطبيق منهجه في تآليفهم ما أمكن. وكان أكثر هؤلاء على الإطلاق أحمد بابا التنبكتي

---

1- أحمد بابا: نيل الابتهاج ص 27 و28.

2- ينظر عبد الله المرابط الترغي: "كتب التراجم العامة وكتب المناقب خلال عصر المولى إسماعيل"، مجلة المنهال، العدد 51، الرباط، 1969، ص 63.

3- عبد الله المرابط الترغي: مجلة المنهال العدد 51، ص 64.

4-ينظر علي مصطفى المصراتي: مؤرّخون من ليبيا (مؤلّفاتهم ومناهجهم)، منشورات الشركة العامة للنشر، طرابلس، ط1، 1977، ص 197، 199.

الذي تجلّت في كتاباته العديد من بصمات سلفه عياض واتجاهاته الفكرية، وبخاصّه منحاه الزهدي وتأثّره بالفكر الصُفي في كتبه ومظانّه[1]. وهو ما يمكن اعتباره إحدى القواسم المشتركة التي جمعت بين هذين المؤرّخين الثّبتين. ناهيك عن رصانة وبلاغة أسلوب كل منهما وفرط دقّتهما في جمع وانتقاء مادتهما التاريخية لتراجم أعلامهما.

ثالثاً: تعامله مع المادة المصدريّة في كتاباته: إن من أهم ما يميّز كتابي احمد بابا التنبكي التاريخيين (النيل) و(الكفاية)، هو اعتماده فيهما على عدد جمّ من المصادر والمراجع التي استقى منها مادته التاريخية، وهذا يدل بدوره على اطلاعه الواسع على الكتب والأمّهات، وبحثه الدؤوب من أجل جمع شتيت أبحاثه وتآليفه.

ولهذا نجد تلميذه ومعاصره أحمد المقري التلمساني (ت 1041هـ) يصفه قائلاً: "الشيخ المؤلّف الكبير المصنّف، العلم الطّائر الصّيت"[2] غير أن هذه الصّفات لها دلالتها الكبيرة لأنها جاءت من كاتب مفلق، وأديب ناقد، ومؤرّخ ثبْت، ألا وهو المقري صاحب (النّفح) و(أزهار الرياض).

ويمكن أن نجمل مصادر التنبكتي في كتابيّه (النيل) و(الكفاية) على النحو التالي:

أ- كتب المناقب والكرامات: ومنها:

- التشوّف إلى رجال التصوّف. للتادلي أو ابن الزيّات.

---

1- تبدو تأثيرات الفكر الصُّوفي في كتابات القاضي عياض من خلال تأريخه للعديد من الزهّاد والصالحين والمتصوفة. ثم تعرضه لسرد بعض كراماتهم التي شُهروا بها، وأنماط حياتهم ومعيشتهم. ومن أمثلة ذلك عنده ما جاء في حديثه عن جنازة الحافظ ابن الفَخار إذ يقول: "وكان الحفل في جنازته عظيمًا، وعاين الناس فيه آية من طيور سود أمثال الخطاطيف، تخللّت الجمع دافّة فوق نعشه، لم تفارقه إلى أن سار في لحده وسوّي عليه، فتعجّب الناس منها". ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك 289/7. عبد الواحد عبد السلام شعيب: القاضي عياض مؤرّخاً 91و92.

2- أحمد المقري التلمساني: روضة الآس، ص 303.

- النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب. لابن صعد التلمساني.

- الكوكب الوقّاد فيمن دفن بسبتة من العلماء والزهّاد.

- مناقب صلحاء القيروان، لأبي زيد الدبّاغ.

ب- كتب الفهارس والبرامج والمشيخات، ومنها:

- فهرسة أبو عبد الله الحضرمي، وكذلك مشيخته.

- فهرسة الشيخ إسماعيل بن الأحمر.

- فهرسة أبو القاسم بن الشاط.

- فهرسة أبو زكريا السّراج.

- فهرسة ابن غازي.

- فهرسة الشيخ المنجور.

- فهرسة صاحبه الأديب المؤرّخ أبو عبد الله محمد بن يعقوب.

- كناشة الشيخ أحمد زرّوق. وكذلك فهرسته.

- برنامج الرعيني.

جـ- كتب التاريخ العام وتاريخ المدن والأقاليم:

- تاريخ ابن خلدون.

- تاريخ مصر لابن يونس.

- تاريخ مصر للسيوطي.

- الإحاطة في أخبار غرناطة. لابن الخطيب.

- رقم الحلل في نظم الدول. لابن الخطيب أيضاً.

- الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون. لابن غازي.

د- كتب الوفيات:

- وفيات أحمد الونشريسي.

- الوافي بالوفيات، للصّفدي.
- وفيات ابن قنفذ القسنطيني.

هـ- كتب الجغرافيا والرحلات:

- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري.
- رحلة خالد البلوي.
- رحلة القلصادي
- رحلة ابن قنفذ.
- رحلة العبدري.
- رحلة ابن خلدون.
- رحلة التجاني.
- رحلة التجيبي.
- رحلة ابن بطوطة.

وكتب التراجم والطبقات: ومنها كتب الصّلات الأندلسية وهي:

- الصّلة لابن بشكوال.
- التكملة لابن الأبذار.
- الذّيل والتكملة، لابن عبد الملك المراكشي.
- صلة الصّلة لابن الزبير.
- عائد الصّلة لابن الخطيب.

ومن كتب التراجم والطبقات الأخرى:

- الديباج المذهب لابن فرحون.
- توشيح الديباج للقوافي.
- الغُنية للقاضي عياض.

- إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني.
- الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة له أيضًا.
- العبر في خبر من عبر للذّهبي.
- عنوان الدّراية للغبريني.
- أعيان الأعيان للسيوطي.
- الضوء اللاّمع للسخاوي.
- الكتيبة الكامنة لابن الخطيب.
- المُشْرِق في حُلَى المَشْرِق، لابن سعيد.

وبالإضافة إلى هذه المصادر فإن هناك الرواية الشفهيّة أي ما كان يتلقّفه من أفواه غيره ممن عرفوا بأمانتهم وثقافتهم. ثم المكاتبة والمراسلة وبخاصة ما كان يوافيه بها صديقه الأديب المؤرّخ أبو عبد الله محمد بن يعقوب. ثم ما كان يجده مدبّجاً بخطوط وتقاليد العلماء. وأخيرًا فهناك المشاهدة والمعاصرة، أي تأريخه للأعلام المعاصرين له عن طريق خبرته وتجربته العلمية لمعايشته إياهم، ودرايته بأخبارهم وأحوالهم.

وبعد هذه اللاّئحة الطويلة من مصادر أحمد بابا التنبكتي في كتابيّه (النيل) و(الكفاية) فإنه يمكن استنتاج ما يلي:

1- أنه عن طريق الدّراسة المقارنة بين هذه المصادر والمظانّ المختلفة والمتباينة يتضح لنا أن كتب التصوّف والمتصوّفة، كانت من المصادر المهمة التي عوّل عليها المؤلّف في الترجمة لكثير من أعلامه، وبالتالي نجد كلا الكتابين يعجُّ بمادة تاريخيّة غزيرة تخصُّ هؤلاء المتصوّفة وكراماتهم.

2- كما أن شغف التنبكتي بالتصوّف ورجاله لم يقف عند جمع أخبارهم ومناقبهم وحسب، بل جعله يصدّر قائمة مصادره ومراجعه في آخر كتابه (الكفاية)، بأشهر كتب المتصوّفة في الغرب الإسلامي ألا وهو كتاب (التشوّف إلى رجال التصوّف) للتادلي أو ابن

الزيّات وذلك في قوله: "وقد انتقيت أصل هذا المختصر من كتب ككتاب التشوّف إلى رجال التصوّف للتادلي، والسّفر الثاني من ذيل ابن الأبّار لصلة ابن شكوال.."[1]

3- تفصح مصادر التنبكتي هذه في كتابيّه عن محاكاته للقاضي عياض في (مداركه) وذلك في جانبيْن اثنينْ أوّلهما: كثرة أعداد مصادره وتباينها حتى شملت معظم الكتب والمؤلّفات التي تُعنى بدراسة الأعلام والتأريخ لسيرهم وأحوالهم، أيْ ممّن خصّهم بالترجمة.

وثانيهما: استخدامه للمنهج النّقدي في التعامل مع المادة المصدريّة التي اعتمد عليها في استقاء ما يلزمه منها في الترجمة لرجاله وأعلامه. وعليه فإنه يمكن أن نلحظ استعمال التنبكتي لهذا المنهج النقدي في استدراكاته على كل من ابن فرحون (ديباجه) وبدر الدين القرافي في (توشيحه) أو في انتقاده لروايات المؤرّخين والمؤلفين الآخرين الذين نقل عنهم.

ومن أمثلة استدراك التنبكتي على ابن فرحون، ما ذكره في ترجمة محمد بن هارون الكناني التونسي التي جاء فيها: "توفي عام خمسين وسبعمائة في الوباء. ذكره ابن القنفذ. والعجب من صاحب الديباج حيث لم يذكره أصلاً مع كثرة نقله عنه"[2].

أما فيما يتعلّق ببعض استدراكاته على القرافي في (توشيح الديباج وحلية الابتهاج) الذي ذيَّل به ـديباج) ابن فرحون أيضًا، ما جاء في ترجمة احمد بن عبد الله البوشي المالكي الذي يذكر القرافي: أن إبراهيم بن يخلف التنسي قد أخذ عنه. ولذلك يتدخّل التنبكتي قائلاً: "قوله أذخ عن إبراهيم بن يخلف التنسي غير صحيح وصوابه، والله أعلم، أن يقول: أخذ عن إبراهيم بن يخلف، والله أعلم"[3].

---

1- أحمد بابا: كفاية المحتاج 285/2.

2- أحمد بابا: كفاية المحتاج 50/2 و51 رقم 462.

3- أحمد بابا: نيل الابتهاج ص 92 رقم 57.

ومن الروايات التي انتقدها التنبكتي كذلك رواية السخاوي أثناء ترجمته لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكفيف المراكشي المعروف بالضرير حيث يقول في (الكفاية): "وله منظومة في البيان وجزء سمّاه: إسماع الصمّ في إثبات الشّرف من جهة الأم، حسن مفيد في كراريس، أملاه عام أحد وثمانمائة، وليس بصحيح، لما تقدّم من وفاته عن ابن الخطيب وهو أعلم به"[1]. ومنها أيضًا نقده لأبي الحسن القلصادي في رحلته عندما نسب بيتين من الشعر لأحمد بن محمد عبد الله القلشاني التونسي وهما:

إذا ما اعتزّ ذو علم بعلم &&& فعلم الفقه أشرف في اعتزاز

فكم طيب يفوح ولا كمسك &&& وكم طير يطير ولا كباز[2]

ولذلك يعقّب التنبكتي عليهما بقوله:

"والبيتان ليسا له، بل لبعض القدماء أنشدهما في كتاب الأدب للمتعلّم وهو قبل القلشاني بزمن طويل، والله أعلم"[3].

غير أن من اللاّفت للانتباه هنا كذلك أن من ميزات منهجيّة أحمد بابا التنبكتي العلميّة في تعامله مع المادة المصدريّة المتوفرّة لديه، هي رجوعه في كثير من الأحايين إلى الأصول التي نقل عنها من أراد هو الاعتماد عليهم في كتاباته.

ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر، ما اخبر به في ترجمتيّ الخضر بن احمد ابن أبي العافية الغرناطي، وأبي القاسم محمد بن جزيّ. حيث يقول في الأولى: "ذكره في الأصل وأخذ ترجمته من الإحاطة، وقال الحضرمي في مشيخته..."[4]

---

1- أحمد بابا: كفاية المحتاج 117/2 و118 رقم 506.

2- أحمد بابا: نيل الابتهاج ص 116 و117 رقم 101.

3- المصدر نفسه ص 117.

4- أحمد بابا: نيل الابتهاج ص 146 رقم 174.

ويقصد بالأصل هنا كتاب (الديباج المذهب) لابن فرحون الذيّ ذيّله التنبكتي بكتابه (النيل)، كما مرّ بنا أي أن الأخير قد قام في هذه الحالة بالمقارنة بين نصّيْ (الديباج) و(الإحاطة) لابن الخطيب، فوجد أن ابن فرحون قد نقل نصّ (الإحاطة) بحذافيره في هذه الترجمة. وفي الترجمة الثاني الخاصة بابن جزيّ يستعمل التنبكتي الطريقة نفسها فيقول: "ذكره في الديباج نقلاً عن الإحاطة. قال الحضرمي..."[1].

رابعًا: اهتمامه بأخبار المتصوّفة وكراماتهم: لما كانت كتب الطبقات والتراجم الإخبارية تعتني في المقام الأول بالتأريخ للأعلام وذوي النّباهة، وغيراد لثمُع من أخبارهم وفِقَرٍ من سيرهم، لذا فإن المؤرّخ أحمد بابا في كتابيْه (النيل) و(الكفاية) قد سار على هذا المنحى، وبخاصّة مع العلماء من أصحاب الزُّهد والتصّوف، الذين اجتهد في الإخبار عن أحوالهم وسوق كراماتهم.

ولعل من أمثلة ذلك قوله في الحسن بن مخلوف الراشدي (ت 857هـ): "له مكاشفات وكرامات كثيرة، منه أنه كان يتوضأ في صحراء يومًا، فإذا أسد عظيم، فلما أعمّ وضوءه، التفت للأسد فقال: تبارك الله أحسن الخالقين ثلاثًا. فأطرق الأسد برأسه إلى الأرض كالمستحي وقام ومضى"[2].

وبالنسبة لعبد الله بن محمد الحجري (ت 591هـ) قال فيه أيضًا: "وتوفي في أواخر المحرّم سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وعظم الجمع في جنازته والثناء عليه. ولما ووضعت جنازته توّسل به أهل سبتة في قحط بهم فسقُوا ليلتهم وابلاً. وسُمعت امرأة صالحة تستحاض بموته، فقالت: اللّهم إن كان من الصّالحين، فارفع ما بي حتى أُصلي عليه، فارتفع دمها و لم يعد إليها".

---

1- أحمد بابا: كفاية المحتاج 41/2 رقم 448.

2- أحمد بابا: كفاية المحتاج 189/1 و190 رقم 147.

أما عن أبي إسحاق إبراهيم بن موسى التلمساني فيقول: "له كرامات كثيرة، منها ما ذكره كبير أصحابه أبو عبد الله بن جميل، قال: عرض لي مسألة فقلت فيها قول أصبغ وابن حبيب دون المشهور لعذر ثم زرت الشيخ وأنا متألّم فقال لي: مالك يا فلان؟ قلت: ذنوبي. فقال لي فورًا لا ذنوب على من قلدّ أصبغ وابن حبيب... وذكر غير واحد أنه كان خارج البلد، في وقت لا يدرك فيه الباب ثم يرونه في البلد"[1].

بيد أن على ذكر هؤلاء المتصوّفة وكراماتهم لا بد من التنويه بالدور الكبير الذي كانوا يضطلعون به في خدمة الناس أثناء المحن والشّدائد. ولهذا يخبرنا التادلي في (التشوّف) على أن أبا حفص عمر بن معاد الصّنهاجي كان "يخلو بالبرية ويصطاد أجباح النّحل، والحوت من سواحل البحر فيقتات بذلك، ولما أتت على الماس المجاعة عام خمسة وثلاثين وخمسمائة، جمع خلقًا كثيرًا من المساكين، فكان يقوم بمؤونتهم وينفق عليهم ما يصطاده من الحوت وغيره إلى أن أخصب الناس"[2].

وهكذا فقد لعب المتصوّفة دورًا هامًا في المجتمع المغربي والأندلسي على حدّ سواء إبان العصر المرابطي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، فقد حاولوا التخفيف على الفقراء من عبء الضرائب، ومساعدة اليتامى والأرامل وإطعام الغرباء، ومعاونة المدينين، فضلاً عن دورهم الأخلاقي، والدعوة إلى القيم الدينية[3].

خامسًا: إكثاره من الألقاب والمصطلحات الصُوفِيّة:

---

1- أحمد بابا: كفاية المحتاج 162/1 و163 رقم 116.

2- التادلي: التشوّف إلى رجال التصوّف ص 183 رقم 59.

3- ينظر إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين ص 174، عبد الواحد عبد السّلام شعيب: القاضي عياض مؤرّخاً ص 93 هامش رقم 61.

نظرًا لكثرة أعلام المتصوّفة الذين أرّخ لهم التنبكتي في كتابيْه (النيل) و(الكفاية)، ونظرًا لتأثّره بالكتب والمؤلّفات التي سبقته مما تُعنى بسيرهم وأخبارهم، لذا فقد جاءت تراجمه لهؤلاء مليئة بالألقاب والمصطلحات التي اختصّ بها أصحاب الزُّهد والتصّوف دون غيرهم. ويمكن أن نجتزئ بعض النماذج عن استعماله لمثل هذه الألقاب الصُّوفية في النقاط التالية:

- ما ذكره في التعريف بشيخه محمد بغُيعُ الذي قال فيه: "شيخنا وبركتنا الفقيه العالم الصالح، العابد الناسك"[1].

- أما الصُّوفي الشهير ابن العريف فقد جاء في ترجمته قوله: "أحد الأولياء المتسمّين بالعلم والعمل والزهد، كان من الفقهاء والمحدّثين والقرّاء والمجوّدين، ثم غلب عليه الزهد والورع والإيثار، فأصبح من أعلام المتصوّفة ورجال الكمال"[2].

- ويقول عن أبي العبّاس السَبتي: "الولّي الزاهد، العارف بالله، القطب ذو الكرامات الشهيرة، والمناقب الكثيرة، والأحوال الباهرة، والفضائل الظاهرة"[3].

- وبالنسبة لأبي عبد الله محمد بن أحمد الإشبيلي المعروف بابن مجاهد، فقد أُطلق عليه: "زاهد الأندلس، علاّمة العلماء، وشيخ مشايخ الصُّوفيّة"[4].

- وفيما يتعلّق بالشيخ أحمد زرُّوق الذي نقل عنه كثيرًا في كنّاشته، وفهرسته، وبعض تآليفه فقد قال في وصفه: "الإمام العالم، الفقيه المحدّث، الصّوفي، الولّي الصالح، الزاهد، القطب الغوث، العارف بالله، الحاج الرُّحلة المشهورة شرقًا وغربًا، ذو التصانيف العديدة، والمناقب الحميدة، والفوائد العتيدة..."[5].

---

1- أحمد بابا: كفاية المحتاج 237/2 رقم 646.

2- أحمد بابا: نيل الابتهاج ص 68 رقم 36.

3- المصدر نفسه ص 69 رقم 38.

4- أحمد بابا: كفاية المحتاج 21/2 رقم 421.

5- أحمد بابا: نيل الابتهاج ص 130 رقم 125.

وعلى ذكر هذه الألقاب التي عثر بها أهل الصّلاح والتصوّف، فقد أمدّنا التنبكتي بأسماء بعض النّساء الصّالحات كذلك مثل: أم هانئ بنت محمد العبدوسيّة التي يقول عنها: "كانت فقيهة صالحة، ذات علم وصلاح وقارب سنّها مائة، وتوفيت سنة ستين وثمانمائة"[1].

إذن فإن كثرة هذه النّعوت والألقاب التي وصف بها التنبكتي أعلامه من الزّهاد الذي ازدهر على أيامه، الأمر الذي انعكس على كتاباته وتآليفه، فجاءت تعجُّ بمادة غنّية عن هذا العلم ورجاله.

سادساً: ملامح من سلوكه الصُّوفي: من خلال استقراء نصوص أحمد بابا التنبكتي في كتابيه القيمّين (نيل الابتهاج) ومختصره (كفاية يفصح عنها بين الفينة والأخرى، يتضّح لنا أن الرّجل قد تشرّب وتعمقّ في فهم الفكر الصُّوفي من ناحية، ثم مارس بعضًا من عادات علماء المتصوّفة وسلوكهم من ناحية ثانية: لذلك نجده في الترجمة لعمه أبي بكر بن أحمد بن أقيت، يذكر أن بركته هي التي يسّرت دراسته لعل النحو عليه في مدّة وجيزة، وبكل سهولة ويسر[2].

أي بمعنى أن التنبكتي في هذه الحالة قد جرَّب وعايش هذه الكرامة، التي حصلت له بفضل بركة الولي الصالح عمّه وشيخه أبي بكر. لأنه كان "خيرًّا صينًا، ورعًا،زاهداً، تقيًا، أوّاهًا، وليًا مباركًا"[3].

كما أن من مشاهد شيوخ وعلماء الصّوفية الذين جرّب بركتهم عن كثب، أبو العباس السّبتي، وهو أحمد بن جعفر الخزرجي (ت 601هـ)، الذي يقول في ترجمته: "نزيل مراكش، وبها توفي، وقبره معروف مزار مزاحم عليه مجرّب الإجابة، زرته مرارًا لا تحصى،

---

1- أحمد بابا: كفاية المحتاج 257/2 رقم 667.

2- أحمد بابا: كفاية المحتاج 181/1 رقم 137.

3- المصدر نفسه والصفحة.

وجربّت بركته غير مرّة"[1]. ثم يحدّد المرّات التي تردَّد فيها لزيارة ضريح هذا الشيخ العالم فيقول: "وقد زرته ما يزيد على نحو خمسمائة مرّة، وبتّ هناك ما ينيف عن ثلاثين ليلة،وشاهدت بركته في الأمور، فلله الحمد على ما يسّر"[2].

ومن هؤلاء أيضًا العالم الصُّوفي علي بن إسماعيل بن حرزهم الفاسي الذي يذكر التادلي، بأن قبره مجرّب البركة[3]، ثم يردف التنبكتي قائلاً: "وقد زرت قبره بفاس"[4].

وهكذا يفهم من هذه النصوص شيئين اثنين: أولهما: أن التنبكتي كان مولعًا بزيارة قبور شواهد المتصوّفة ممّن اشتهروا بكراماتهم وبركاتهم، سواء بمدينة مراكش مقرّ إقامته، أم في غيرها من المدائن المغربية الأخرى التي كان يشدّ الرّحال من أجل ذلك، مثل مدينة فاس وغيرها، وهو الأمر الذي لا يخرج عن كونه ضرب من الممارسة الصُّوفية في حدّ ذاته.

وثانيهما: أن التصوّف كان قد شهد أوج ازدهاره في القرنين العاشر والحادي عشر الهجري بالغرب الإسلامي، إذ إن زيارة الصالحين ومقابر المتصوّفة كان ديدن العديد من كبار العلماء آنذاك، أمثال التنبكتي هذا. ولعل كلام عصريّه وتلميذه المقري التلمساني في ترجمته لخير شاهد على هذا وذلك في قوله: "وانتفعت به واستفدت منه، وكنت كثيرًا ما أذهب معه إلى زيارة الصّالحين بحضرة الإمامة، مصحوبين بجملة أعلام فنتذاكر في طريقنا فنونًا جمّة"[5].

كما أن من الشّواهد الأخرى التي تنبئ عن عمق الحسّ الصّوفي لدى التنبكتي ودرايته بأخبار المتصوّفة ومناقبهم، هو عزمه أو تفكيره على التأليف في سيرة من بلغ الشّأو منهم

---

1- أحمد بابا: نيل الابتهاج ص 69 رقم 38.

2- أحمد بابا: نيل الابتهاج ص 76.

3- أحمد بابا: كفاية المحتاج 331/1 رقم 331.

4- المصدر نفسه والصفحة.

5- أحمد المقري التلمساني: روضة الآس، ص 303 رقم 24.

أمثال الشيخ الشهيد احمد زرّوق، الذي قاده الإعجاب به إلى أن قال في ترجمته: "وبالجملة فقدره فوق ما يذكر، ومن تفرّغ فذكر حاله وفوائده ورسائله جمع منها مجلّدًا، ولعلنا نفردها بتأليف إن يسّر الله تعالى. وهو آخر أئمّة الصّوفية المحقّقين الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة، له كرامات عديدة، وحجّ مرّات"[1].

وعلى أية حال فإن تفكير التنبكتي في تصنيف مؤلّف حول هذا الصّوفي أحمد زرّوق، لم يخرج من دائرة اهتمامه بأدب التصوّف، وجمع الأذكار والتعرّف عليها[2]، إذ إن من بين مؤلذفاته في هذان الفنّ:

- الدّر النفيير في كيفيّة الصلاة على الشفيع البشير.
- والمنهج المبين في شرح حديث أولياء الله المحبين.
- ثم رسالته في التصوّف التي تناول فيها مسألة هامة تخصّ الطريقة الجوزلية، وهي ضرورة الاقتداء بالشيخ في الطريقة خلافًا لرأي ا[ي الحسن الشاذلي في ذلك[3].

---

1- أحمد بابا: نيل الابتهاج ص 130 رقم 125.

2- ينظر حسن جلاّب: "أحمد بابا والتصوّف في كتابه (الدّر النضير)"، مجلّة بحوث ندوة أحمد بابا التبكتي، منشورات المنظمّة الإسلامية للتربية والعلوم والصقافة إيسيسكو، 1993، ص 146.

3- ينظر حسن جلاّب: المرجع نفسه، ص 146 و147.

**خاتمة:**

وفي نهاية هذا العرض يمكن أن نسجّل النقاط الآتية:

- أن بيئة احمد التنبكتي العلميّة الأولى في بلده تنبكتو، كانت هي المنهل العذب، التي استقى منها أسس تكوينه الصُّوفي منذ نعومة أظفاره، وذلك على يد جلّة من شيوخه الأوائل أمثال: والده وعمه أبي بكر بن أقيت وشيخه محمد يغيُغ.

- أما انتقاله إلى البيئة المغربية الجديدة بمراكش بعد أن ناهز الأربعين من عمره، فقد واكب ازدهار الفكر الصُوفي في هذا البلد، وفي الغرب الإسلامي بعامّة، الأمر الذي ساعد على تألقّه في الإلمام بعلم التصوّف، والدّراية بأخبار رجاله ومناقبهم وكراماتهم، وهو ما انعكس بشكل واضح في كتاباته وتآليفه في فنّ الطبقات والترّاجم، أو في مؤلّفاته الأخرى ذات الصّبغة الصّوفيّة الصّرفة.

- يعتبر كتابيْ (نيل الابتهاج) ومختصره (كفاية المحتاج) للتنبكتي، من أهم المصادر التي أرّخت لأعلام المالكية، بعد موسوعة القاضي عياض (ترتيب المدارك) على الإطلاق، إذ أن تأسّيه بطريقة هذا العالم الفذّ واتّباعه لمنهجه، جعله يفوق كل الذين سبقوه في التأريخ لعلماء المذهب المالكي أمثال: ابن فرحون في (ديباجه)، والقرافي في (توشيحه)، لا بل وحتى الذين جاءوا من بعده أيضًا.

- وفيما يتعلّق بدراسة الفكر الصّوفي وأعلامه وبخاصّة في الغرب الإسلامي، فإن كتابيْ (النيل) و(الكفاية)، يعدّان في طليعة المصادر التي تُعنى بهذا الفنّ، وذلك لاشتمالها على مادة غنيّة تشفى غليل الباحث في هذا الميدان.